

(٤٦) خطبة له ﷺ في التحذير

من التنافس في حب الدنيا

والتربغيب في أعمال الآخرة

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى قتلى أحد فصلى عليهم بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع إلى المنبر، فقال:

«إني بين أيديكم فرط، وأنا شهيد عليكم، وإن موعدكم الحوض، وإنّي لأنظر إليه من مقامي هذا، وإنّي لست أخشى عليكم أن تُشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها».

قال (١): فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ.

(متفق عليه)

وفي رواية:

« ولكنّي أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتقتلوا؛ فتهلكوا

كما هلك من كان قبلكم » .

قال عقبة: فكان آخر ما رأيت رسول الله ﷺ على المنبر .

وفي رواية قال:

(١) أي: عقبة بن عامر رضي الله عنه .

«إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْصِي
الآنَ ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ - وَإِنِّي
وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي ، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ
تَنَافَسُوا فِيهَا » .

قال في «رياض الصالحين» : والمراد بالصلاة على قتلى أحد :
الدعاء لهم ، لا الصلاة المعروفة .

في هذه الخطبة - كما قرأنا - يشير النبي ﷺ إلى أنه فرط بين أيدينا -
أى أنه سيسبقنا إلى لقاء الله تبارك وتعالى - وأنه شهيد علينا ، أى أنه
ﷺ سيكون شهيداً علينا يوم القيامة كما كان شهيداً لنا في الدنيا ،
وذلك لمصلحتنا ، وضمناً لنجاتنا يوم العرض الأكبر :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ..

وهذا معناه - كذلك - أننا لا بد وأن نكون أهلاً لتلك الشهادة التي
بدونها - والعياذ بالله - سنكون في حالة يرثى لها ، مع ملاحظة أننا لن
نكون أهلاً لها إلا باتباع الرسول ﷺ ، والبعد عن مُحدثات الأمور .
وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في قوله : « وَإِنْ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْصُ » .

وفي حديث آخر :

(١) سورة المطففين : ٦ .

« وَأَنَا فَرَطُهُمْ^(١) عَلَى الْحَوْضِ ، أَلَا لِيُذَادَنَّ رَجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ ، أَنَادِيهِمْ : أَلَا هَلُمَّ^(٢) ، فَيَقَالُ : إِنَّهُمْ بَدَلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ : سَحَقًا ، سَحَقًا^(٣) . »

(من حديث رواه مسلم)

مع ملاحظة^(٤) : أن لكل رسول حوضاً يردُّه الطائعون من أمته ، وأن حوض النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أكبرها وأعظمها ، طوله مسيرة شهر ، مربع الشكل ، له ميزابان يصبان فيه من الكوثر ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، كيزانه أكثر من نجوم السماء ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً ظمأً ألبم ، ولو دخل النار يعذب بغير العطش ، ويكون شربه منه أو من غيره كالتسليم^(٥) بعد ذلك لمجرد اللذة ، يردُّه الأخيار ، وهم المؤمنون بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، الآخذون بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، ويُطرد عنه الكفار والمبتدعة ، الآخذون بالتحسين والتقيح . . وكل من تعامل بالربا ، أو جارَ في الأحكام ، أو أعان ظالماً ، أو جاوز حداً من حدود الله تعالى .

(١) أى : أتقدمهم .

(٢) أى : تعالوا .

(٣) أى : بُعداً لهم .

(٤) كما جاء في «الدين الخالص» ج ١ .

(٥) قال تعالى : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنَ التَّسْنِيمِ ﴾ [المطففين : ٢٧] وهو أفضل شراب الجنة .

وقد صحَّح الغزالي أن الحوض قبل الصراط، وكذا القرطبي، وقال: المعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً فناسب تقديم الحوض، وأيضاً فإن من جاز الصراط لا يتأتى طرده عن الحوض فقد كملت نجاته . .

ثم إذا كان الرسول ﷺ قد قال في نهاية الخطبة: « وائى لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها»: فإن النبي ﷺ يريد بهذا أن يحذرننا من التنافس في حب الدنيا بتلك الصورة التي قد تلهينا عن ذكر الله تعالى، كما يشير قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا نَذَرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمًا وَمَتَعَلِّمًا».

(رواه الترمذى وقال: حديث حسن)

وحسبنا في النهاية إذا أردنا أن نعرف حقيقة الدنيا: أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ

(١) سورة المنافقون: ٩ .

قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَفْنِ بِالْأَمْسِ
كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

* * * ولهذا فإنه من التفكير الإيجابي أن يتأمل الإنسان المؤمن في كل ما يحيط به من مخلوقات . . حتى يتفكر في عظمة الخالق سبحانه وتعالى من خلال هذا التأمل . كما يشير إلى هذا أحدهم في قوله :

تَأْمَلُ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَأَنْظُرُ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِكُ
عُصُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ بِأَبْصَارِ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِينُ
عَلَى قُضْبِ الرَّبْرِجِدِ شَاهِدَاتٌ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

جعلنا الله تعالى من القوم الذين يتفكرون في تلك الآيات التي فصلها الله تبارك وتعالى . . حتى نكون من أبناء الآخرة لا من أبناء الدنيا، وحتى نكون من أولى ﴿الْأَبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢) .

ثم يقولون :

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٣) .

. . . . أمين .

* * *

(١) سورة يونس : ٢٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) سورة آل عمران : ١٩١ .